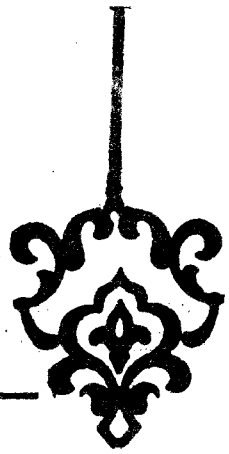

الفصل الثامن

ابن طباطبا وعملية الابداع الشعري

يعد كتاب عيار الشعر من الكتب النقدية المهمة التي شقت طريقها في تاريخ النقد العربي رسم فيه ابن طباطبا ملامح واضحة للنظرية النقدية المتعلقة بمفهوم الشعر وقواعده . واصوله مما يمكن الشاعر والناقد معا من الوصول الى المستوى الجيد في معرفة الاشعار ونظمها معتمدا على ما استمده واستخلصه من دراسات السابقين من علماء الشعر . وعلى خبرته الخاصة في هذا المجال . وهذا الجانب هو الاصيل الجدير بالتنبيه لان ابن طباطبا يسجل تجربة خاصة للشاعر الذي عانى من صنعة الشعر فقيد كل مامر به منذ اللحظات الاولى المتمثلة بكون القصيدة مجرد خاطر حتى تمامها وأكتمالها(١) (فهو كتاب معني بتحديد اصول الفن الشعري مما يجعله يلتقي مع كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر . وكتاب منهاج البلغاء وسراج الادباء لحازم القرطاجني . وذلك لان هذه الكتب الثلاثة تشغل بقضية تأصيل الفن الشعري في ذاته وتحاول ان تقدم تصورات نقدية متماسكة تحدد ماهية الفن الشعري كما نحدد وظيفة له على الشعراء)(٢)

---

(١) تاريخ النقد العربي / محمد زغلول سلام ص ١٤٥ مطبعة دار المعارف ـ مصر

(٢) مفهوم الشعر / محمد جابر عصفور ص ٣٥ ـ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٢

واذا كانت صيغة علم الشعر التي نجدها في كتاب ابن طباطبا وقدامة هي صيغة وصلت الى درجة المصطلح المتميز الذي يشير الى تزاوج المعارف التقليدية المتصلة بعلوم العرب اللغوية والمعارف غير التقليدية المتصلة بالفلسفة(٣). فأننا نرى كتاب عيار الشعر منفردا عن كتاب قدامة في مقدرته على تفهم معارف عصره والاستفادة منها في فهم الشعر وكتابة مايتعلق بمعاييره فهما يبرز الروح العربية الخالصة بعيدا عن مصطلحات الفلاسفة او تأثيرات اليونان وثقافاتهم. ولو لا بعض الملامح الذهنية في معالجاته لمهمة الشعر لقلنا ان كتاب عيار الشعر يمثل الاتجاه العربي الخالص في فهم الشعر. ومحاولة كتابة معاييره المتعلقة بالعملية الابداعية ذاتها. اوالوسائل المعينة عليها الاخذة بيد الشاعر نحو الاجادة والابداع.

وقد بين ابن طباطبا منذ البداية غايته الارشادية التعليمية بقوله (وقد جمعنا ما اخترناه من اشعار الشعراء في كتاب سميناه تهذيب الطبع يرتاض فيه من تعاطى قول الشعر بالنظر فيه. ويسلك المنهاج الذي سلكه الشعراء. ويتناول المعاني اللطيفة كتناولهم اياها فيحتذي على تلك الامثلة في الفنون التي طرقوا اقوالهم فيها واقتصرنا على ما اخذناه من غير نفي لما تركناه بل لاستحسان له خصصناه به دون ماسواه)(٤)

ولم يصل الينا كتاب (تهذيب الطبع) ولكن اشارة ابن طباطبا هذه تفيد في فهم نظرته النقدية ازاء الموهبة الشعرية. ووجوب صقلها وتهذيبها واعانتها بالرياضة الفكرية من خلال الاطلاع على النصوص الشعرية الجيدة التي كانت وراء تأليفه لهذا الكتاب.. ومع ذلك وجدنا ابن طباطبا يطبق نظرته هذه في كتاب عيار الشعر ايضا من خلال الشواهد الشعرية الكثيرة التي اختارها لتوضيح مذهب العرب في التشبيهات او طرائقهم في التعبير عن المثل الاخلاقية مدحا وذما. ولم تخل فقرة من فقرات كتابه من مصاحبة تطبيقية في ايراد الشواهد الشعرية التي يبين فيها مدى اجادة اصحابها او اساءاتهم. فقد قال بعد ان اورد امثلة من الشعر انها يمكن ان تمهد الطريق للشعراء للقياس عليها واستنتاج المقاييس منها. وتهذيب ذوقهم وطبعهم بها قائلا :

---

(٣) المصدر نفسه

(٤) عيار الشعر (بيروت ١٩٨٢) ١٣

(كل ما اودعناه هذا الكتاب فأمثلة يقاس على اشكالها وفيها مقنع لمن دق نظره ولطف فهمه)(٥).

تعريف الشعر وادواته :

عرف ابن طباطبا الشعر بأنه (كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به من النظم الذي ان عدل عن جهته مجته الاسماع وفسد على الذوق).

ولا نجد في هذا التعريف اي جدة . ولا هو مختلف عن تعريف معاصره قدامة بن جعفر الذي عرفه بأنه (كلام موزون مقفى)(٦) الا ان الملاحظ ان ابن طباطبا لم يخصه بالوزن والقافية. وانما اختار لفظاً اكثر شمولاً وهو النظم الذي يضم القوافي والوزن والموسيقى الداخلية للبيت في تفعيلاته المختلفة)وبذا جعل شرط توفر النظم اساسا في تعريف الشعر لارتباطه بالذوق والاسماع . وما اعتادت العرب على تسميته شعراً في اطار الابداع الادبي الذي يشمل النثر والشعر .

ولم يفصل ابن طباطبا في تحديد مصطلح النظم . لانه معروف عند الشعراء وغيرهم مقترن بالموهبة الشعرية والذوق الذي يصقل الموهبة وينميها ومن هنا نبه الى مسألة مهمة هي معرفة الشاعر الموهوب بطبعه عروض الشعر وقوافيه دون حاجة الى التعلم لان سليقته السليمة تدله عليه واذا توفرت له الموهبة فلن يغيره تعلم العروض وحذق ميزان الشعر اما العكس فغير وارد يعني به اذا افتقد القارىء الى الموهبة الشعرية والى الطبع السليم فأن تعلم العروض وقوافي الشعر لن يجديه شيئا ولن يخلق منه شاعرا مبدعا ، ـ

(ونظمه معلوم محدود فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج الى استعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه . ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق به حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لاتكلف فيه)(٧)

---

(٥) عيار الشعر / (بيروت ١٩٨٢) ص٨

(٦) نقد الشعر / قدامة بن جعفر ـ تحقيق كمال مصطفى ـ القاهرة ١٩٦٣ .

(٧) عيار الشعر ٩

ويمكن ان نلمح تعريفا اخر للشعر عند ابن طباطبا يتجاوز فيه تحديد المظهر الفني والبنائي للشعر ، وارتباطه بالنظم وهو كون الشعر صورة للنفس الانسانية اتخذت قوالب الشعر وسيلة للتعبير عن جوهر النفس . فأذا توفر هذا القالب النظم والقافية دون الشروط الفنية الاخرى بدا متساويا لان العرب لم يعرفوا آنذاك شعر متحللا من الوزن والقافية . ومن هنا نبه ابن طباطبا الى تفاوت الاشعار لا من حيث الجودة والرداءة فحسب بل من حيث تفاوت النفس الانسانية واختلاف الناس في مشاعرهم وتفكيرهم واحاسيسهم وسدى تقبلهم لهذه الاشعار . والشعر على تحصيل جنسه ومعرفة اسمه متشابه الجملة ، متفاوت التفصيل مختلف كأختلاف الناس في اختلافهم في صورهم واصواتهم وعقولهم وحظوظهم وشمائلهم واخلاقهم ؛ فهم متفاضلون في هذه المعاني وكذلك الاشعار هي متفاضلة في الحس على تساويها في الجنس ومواقعها في اختيار الناس اياها كمواقع الصور الحسنة عندهم .(٨)

ويلاحظ هنا ان ابن طباطبا استعمل مصطلح النظم بدلا من الوزن والقافية وهو مصطلح له ابعاده المرتبطة بتفسير اعجاز القرآن وبارقى درجات البلاغة التي لاتنفصل عن الذوق ، فمن اضطرب عليه الذوق اذن لم يستطع تصحيح الشعر ، وتقويمه بمعرفة العروض او الحذق به الا اذا تحولت المعرفة المستفادة الى شيء كالطبع الذي لاتكلف معه(٩) كما انه يظهر تجربته الشعرية في هذا التعريف الذي خرج به عن الاطار الشكلي الذي حد الشعر بالكلام الموزون المقفى فخرج به عما عرفه قدامة حين خرج عن حقيقته الى مظهره وشكله(١٠)

اما ادوات الشعر فقد تحدث عنها ابن طباطبا حديث عارف بمعاناة الشاعر ومايحتاج اليه من ادوات تعين موهبته الشعرية وطبعه الصحيح ،

(وللشعر ادوات يجب اعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه . فمن تعصت عليه اداة من ادواته لم يكمل له ماتكلفه منه . وبان الخلل في نظمه ولحقته العيوب من كل جهة(١١)

---

(٨) عيار الشعر ١٣
(٩) مفهوم الشعر ٣٨
(١٠) تاريخ النقد الادبي ١٤٨
(١١) عيار الشعر ١٠

واذا بحثنا في الادوات التي يعددها ابن طباطبا ويرى شرط توافرها للشاعر وجدناها متمثلة بما يمكن ان نسميه بثقافة الشاعر اي عصر من عصور العربية القديمة حيث تمثلت هذه الثقافة . ـ

١ . التوسع في اللغة .
٢ . البراعة في فهم الاعراب .
٣ . الرواية لفنون الاداب .
٤ . المعرفة بأيام الناس وانسابهم ومناقبهم ومثالبهم .

هذه المعارف تشكل اهم مصادر الثقافة لجميع الشعراء والمتأدبين . الا ان ابن طباطبا اضاف اليها معرفة استنبطها من تجربته الشعرية بالذات وهي مايتعلق بوجوب رواية فنون الاداب شعرا ونثرا والاطلاع على طرائق الادباء في التعبير واساليبهم في الاوصاف شعرا وقصصا وامثالا ورسائل . لان هذا الاطلاع يدل على مواطن الجمال في اذواق الناس والمتأدبين ويدل على سبيل الارتقاء بالفن الشعري الى مايرضي الذوق العام ومعرفة مذاهب العرب في القول وطرائق التعبير يدل الشاعر ايضاً على كيفية التصرف في المعاني واختيار الالفاظ الملائمة لها .

وينبه ابن طباطبا الى ان ماذكره من عناصر الثقافة الواجب توافرها للشاعر قد لاتكون وحدها كافية للاخذ به نحو طريق الابداع والجمال فيضيف اليها عنصرا مشاركا هاما تستطيع به ان تميز الادوات السابقة وتحدد مدى استفادتك منها الا وهو العقل .

وبمساع هذه الادوات العقل الذي به تتميز الاضداد . ولما كان العقل واعيا او يمكن ان يكون واعيا لكل القيم الاخلاقية خيرها وشرها فقد جعل ابن طباطبا شرط توخي العدل مع معرفة ادوات الشعر . فبالعقل ولزوم العدل يستطيع الشاعر ان يتبين ايثار الحسن واجتناب القبيح ووضع الاشياء مواضعها(٣)

ومع تفضيل ابن طباطبا لادوات الشعر التي يفترض توافرها لدى الشاعر نجده مما يزال يشعر بالحاجة الى مايصقل الموهبة الشعرية عن طريق مايمكن ان نسميه مجازا بالدروس التطبيقية للنصوص الشعرية الجيدة . فالاطلاع على جيد ما قالته

---

(٢) نفسه
(٣) عيار الشعر ١١

العرب . وجميل ما ابدعته من المعاني يهذب الطبع ويصقل الموهبة . ومن هنا نص ابن طباطبا على تأليفه كتابا يمثل هذه الخطوة العملية في محاولة صقل الموهبة الشعرية وهو كتاب تهذيب الطبع قال .

(وقد جمعنا ما اخترناه من اشعار الشعراء في كتاب سميناه تهذيب الطبع يرتاض من تعاطي قول الشعر بالنظر فيه . ويسلك المنهج الذي سلكه الشعراء ويتناول المعاني اللطيفة كتناولهم اياها فيحتذى على تلك الامثلة في الفنون التي طرقوا اقوالهم فيها)(١٤)

ويقول في موضع آخر مشيرا مرة اخرى الى هذا الكتاب . ـ

(وليس يخلو ما اودعناه اختيارنا المسمى « تهذيب الطبع » من بناء ان لم يصلح لان تسكن الافهام في ظله لم يبطل ان ينتفع بنقضه فبعض البناء يحتاج اليه)(١٥)

ويلح هذا المنهج التطبيقي على منهج ابن طباطبا فنراه في عيار الشعر يعمد الى الاختيارات التي تتجاوز الابيات الى المقطوعات والقصائد ليقدمها نماذج للمباحث التي يتحدث عنها . ففي المبحث الذي تحدث فيه عن الابيات التي اغرق قائلوها فيها يتمثل بابيات مفردة منها الى مواطن المبالغة فيها ثم يورد قصائد ومقطوعات لاشعار محكمة متقنة مستوفاة الصعاد من اشعار القدماء كشعر زهير بن ابي سلمى وابي ذؤيب الهذلي وعنترة وسلامة بن جندل وغيرهم من شعراء العصر الجاهلي . ثم قصائد للمغيرة بن حبناء والفرزدق والراعي النميري وابي النجم العجلي وغيرهم مؤكدا ان اشعارهم وما شاكلها من اشعار القدماء والمحدثين اصحاب البدائع والمعاني اللطيفة الدقيقة تجب روايتها والتكثر لحفظها .(١٦)

ويؤكد ايضا ان كل ما اودعه في كتابه فأمثلة يقاس عليها اشكالها وفيها مقنع لمن دق نظره ولطف فهمه(١٧)

---

(١٤) عيار الشعر ٥

(١٥) نفسه ١٩

(١٦) نفسه ٦٧

(١٧) نفسه ٨٥

مهمة الشاعر :

ان مهمة الشاعر في نظر ابن طباطبا تجدها موضحة في افكار بثها في ثنايا كتابه تفيد وجوب توخي الشاعر الصدق المرادف للحسن وتجنب القبيح المرادف للباطل . وتتجلى هذه المهمة فيما يستطيع الشاعر ان يقدمه للقارىء او السامع من اثارة للمتعة الفنية التي لا تتعلق بالالفاظ وحدها ولا المعاني وحدها، وانما يكون الشعر الجيد هو الذي (يلتذ الفهم الحسن بحسن معانيه ، كالتذاذ السمع بمونق لفظه)(١٨) . اما كيف يلتذ السمع والفهم بالمعاني والالفاظ فذلك امر يمكن ان يتضح لنا من خلال الاراء التي فصل ابن طباطبا القول فيها فكمال العقل ـ كما مر بنا ـ هو جماع الادوات الشعرية . وهو الرابط الذي ترتكز عليه الموهبة والطبع في خلق شخصية الشاعر . مما يجعله ويلزمه توخي العدل والانصاف فيما يقول كل هذا يدلنا على مذهب اخلاقي حكم آراء ابن طباطبا النقدية وجعله يدير آراءه وفصوله في كتابه فتكون المثل الاخلاقية هي محور الموضوعات التي وقف عندها ابن طباطبا .

ان اعجاب ابن طباطبا بالشعر القديم وجعله القدوة الحسنة فيما يقراه الشاعر ويحتذي حذوه نفهم منه ايضا الاعجاب بهذا الجانب الاخلاقي الذي تمثل بالقيم الخلقية الرفيعة التي اودعها الشعراء اشعارهم . وخلدوا فيها الحياة العربية بمثلها وامجادها فسجلوا محمود الاخلاق ومذمومها في رخائها وشدتها ورضاها وغضبها وفرحها وغمها وامنها وخوفها وصحتها وسقمها والحالات المتصرفة في خلقها وان شعراء العرب القدماء كانوا صادقين فيما سجلوه من هذه القيم المحمودة والاخلاق العظيمة وحتى اوصافهم وتشبيهاتهم اودعوها بما احاطت به معرفتهم وادركه عيانهم(١٩)

واذا كان ابن طباطبا يجعل هذا الشعر قدوة فلا بد ان تكون مهمة الشاعر هي حمل هذه القيم وبثها في اشعاره شرط ان يكون صادقاً فيما يقول ، وهو موضوع سنقف عنده في حديثنا عن محنة الشعراء المحدثين التي عالجها ابن طباطبا وهذه المهمة هي التي جعلته يفرد فصلا للمثل الاخلاقية عند العرب . وبناء المدح والهجاء عليها وهي خلال مشهورة كثيرة منها في الخلق والجمال والبساطة . ومنها في

---

(١٨) عيار الشعر ٥

(١٩) نفسه ١٦

الخلق والسخاء والشجاعة والحلم والعزم والوفاء . والعفاف والبر والعقل والامانة .. ثم مايتفرع من هذه الخلال من قرى الاضياف واعطاء العفاة وحمل المغارم وقمع الاعداء وكظم الغيظ وفهم الامور ورعاية العهد .. وليؤكد ابن طباطبا ان هذه الخلال المحمودة لم تكن مجرد صفات جوفاء يطلقها الشعراء . وانما هي واقع خبرته الحياة العربية وشهده الشعراء انفسهم فسجلوه في اشعارهم ولذلك تفاوت الممدوحون والمهجوون وفق ظروفهم الاجتماعية او حالاتهم النفسية والبيئية التي كانوا عليها وتفاوت صدقهم فيما يصورونه من هذه المثل والاخلاق فتمايزوا في مدى تأثيرهم على نفوس السامعين .. يقول : —

ولتلك الخصال المحمودة حالات تؤكدها وتضاعف حسنها وتزيد من جلالة التمسك بها كما ان لاضدادها ايضا حالات تزيد في الحط ممن رسم بشيء منها . ونسب الى استشعار مذمومها والتمسك بفضلها كالجود في حال العسر موقعه فوق موقعه في حال الجدة ففي حال الصحو احمد منه في حال السكر . كما ان البخل في الوافر القادر اشنع منه من المضطر العاجز . والعفو في حال المقدرة اجل موقعا منه في حال العجز)(٢٠)

وهكذا يفصل ابن طباطبا المثل الاخلاقية التي وجدها دائرة على السنة الشعراء مفصلا في الحالات التي تبرز هذه القيم مدحا او هجاء مصرحا « اولا » وأخيرا ان قصده من تبيانها ان تكون منارا للشاعر يهتدي بهداه لان مهمته هي توخي العدل والانصاف وتسجيل مثل الخير وما الشواهد التي جمعها الا وسيلة لتعلم احسان اداء هذه المهمة (فتسلك في ذلك منهاجهم وتحتذي على مثالهم ان شاء الله(٢١) . وهذا اتجاه فني عرف قبل عصر ابن طباطبا ووجدناه منذ فجر الدعوة الاسلامية وشق طريقه مع الاراء النقدية الاخرى ليكون مذهبا نقديا قوامه تأكيد (الجانب الاخلاقي المباشر في الشعر . ويقرن جودة صياغة هذا الجانب باعلى درجات الحسن والجمال(٢٢) .

فاذا توفر الشاعر صدق القول وملازمة الحق والصواب واجاد صياغة المعنى الذي اراده فأنه قد ادى مهمته وبلغ رسالة وكأن ابن طباطبا يضع مفهوم الشعر ومهمة

---

(٢٠) عيار الشعر ٩
(٢١) نفسه
(٢٢) مفهوم الشعر ٦٢

الشاعر التي وردت عرضا في بعض احاديث الرسول (ص) نبراسا له(٢٣) . يقول ابن طباطبا (فاذا ورد عليك الشعر اللطيف المعنى الحلو اللفظ . التام البيان . المعتدل الوزن مازج الروح ولأم الفهم وكان انفذ من نفث السحر واخفى دبيبا من الرقى واشد اطرابا من الغناء فسل السخائم وحلل العقد وسخى الشجاع وشجع الجبان وكان كالخمر في لطف دبيبه والهائه وهزه واثارته . وقد قال النبي (ص) ان من البيان لسحرا)(٢٤)

وهناك مهمة اخرى وضحها ابن طباطبا في آخر كتابه تتمثل في قدرة الشاعر في التعبير عن هواجس النفوس وكوامن العقول فيحسن العبارة عنها واظهار مايمكن في الضمائر منها فيبتهج السامع لما يرد عليه مما قد عرفه طبعه وقبله فهمه فيثار بذلك ماكان دفينا ويبرز ما كان مكونا فينكشف للفهم غطاؤه فيتمكن من وجدانه بعد العناء في نشدانه(١) وقد يستطيع الشاعر التعبير عن تجربة ذاتية تصدق ان تكون انموذجاً لتجارب الاخرين او تخيل لهم إن ما نجح الشاعر في تصويره انما هو تعبير عن معاناتهم ومشاعرهم ويدخل ضمن هذا الشعر المعبر عن التجارب الانسانية بشكل عام او الحكمة التي يصل اليها الانسان اثر حدث معين هي خلاصة التجارب الانسانية بشكل عام ايضا .

عملية الابداع الشعري :

تجد في عيار الشعر اول مرة ناقدا وباحثا يتناول عملية الابداع الفني للقصيدة العربية بتتبع المراحل التي يخطوها الشاعر ابتداء من وضعه الفكرة التي تستدعي قول الشعر . وحتى استوائها قصيدة شعرية متكاملة وقد ذهب عز الدين اسماعيل الى القول بأنه لم يجد من وصف العملية الشعرية وصفا مفصلا كابن طباطبا(٢٥)

لقد آثار النقاد ومؤرخو الادب اشارات عابرة بشأن الظروف المعينة على قول الشعر وتحدث ابن قتيبة عن الدواعي والبواعث التي تحث البطيء وتبعث المتكلف على قول الشعر كالطمع والشوق والشراب والطرب الخ(٢٦) . كما تحدث عما اسماه

---

(٢٣) مثل قوله (ص) « الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام» الادب المفرد ١٢٥ . او قوله (ص) (الشعر كلام من كلام العرب جزل تتكلم به في بواديها وتسل به الضغائن من بينها) العمدة ١ / ٢٨ . العشا الـ ٩ .

(٢٤) عيار الشعر ٢٢

(٢٥) الاسس الجمالية في النقد العربي ص ٣٨ . مصر دار الفكر العربي ١٩٥٥ .

(٢٦) الشعر والشعراء . دار المعارف ـ مصر ١ / ٨٤ .

بتارات الشعر اي اوقاته . التي قد يبعد فيها قريبه ويستصعب فيها ريضه وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والاجوبة فقد يتعذر على الكاتب الاديب وعلى البليغ الخطيب لا يعرف لذلك سببا الا ان يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاء او خاطر غم(٢٧) . واشار الى الاوقات التي يجود فيها الشعر و (يسرع فيها آتيه ويسمح فيها ابيه . منها اوائل الليل قبل تغشي الكرى ومنها صدر النهار قبل الغداء . ومنها يوم شرب الدواء . ومنها الخلوة في الحبس والمسير)(٢٨). ووردت على ألسنة بعض الشعراء عبارات واوصاف . يصفون فيها بعض حالاتهم في نظم الاشعار ومعاناتهم من حالات ركود ذهني او تمرد يستعصي فيها عليهم قول الاشعار حتى ذكر عن الفرزدق انه قال (لتمر على الساعة وقلع الضرس من اضراسي اهون علي من عمل بيت من الشعر(٢٩) . وانه قد يستعين على هذه الحالات بالخروج منفردا راكبا ناقته طائفا الاودية لينقاد له ما استعصى من الهامه الشعري الذي جمح عنه وشرد .

وذكر عن شاعر آخر انه وصف بعض حالات معاناته من نظم الشعر فشبهه بقضم الحجر (قول الشعر اشد من قضم الحجر على من يعلمه)(٣٠)

كل هذه الاقوال والاشارات تخص حالات ماقبل عملية الابداع الشعري او تصف معاناة الشاعر ومحاولاته التغلب عليها الا ان ابن طباطبا ينقل لنا فيما يبدو ـ تجربته الشعرية ـ في بناء القصيدة وعملية ابداعها وهي تجربة مهمة سواء مثلت تجربته وتجربة طائفة من امثاله او شملت التجارب معظم الشعراء الاخرين .

فالشعر عند ابن طباطبا نتاج فكري هو والنثر يدوران في اطار الموهبة الواحدة والابداع الفني الصادر عن وعي عقلي وارادة متمكنة ونستطيع ان نقسم مراحل نظم القصيدة في رأى ابن طبابا الى مايلي :ـ

١ . مرحلة كونها فكرة مجردة (نثرا)
٢ . تشكيل الفكرة النثرية بقوالب الشعر . والفاظه وقوافيه واوزانه .
٣ . التسلسل في الابيات وتلاحمها .
٤ . التهذيب واعادة النظر في القصيدة .

---

(٢٧) نفسه وانظر مراسات في النقد الادبي ـ احمد كمال زكي . ص ٨

(٢٨) نفسه ٨١

(٢٩) العمدة ٣٠

(٣٠) المصون في الادب العسكري ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ١٩٦٠ . ٣٣

١. الفكرة نثرا ، يرى ابن طباطبا ان اول مراحل ابداع القصيدة هو كونها فكرة تجول في خاطر الشاعر نثراً (فاذا اراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكرة نثرا)(٣١)

وتبقى الوحدة الفنية الجامعة بين الشعر والنثر مالكة عقل ابن طباطبا حتى بعد ان تنتظم هذه الفكرة بشكل قصيدة ويحاول الشاعر ربط ابياتها ربطا وثيقا كما يفعل المترسل والكاتب البليغ في رسالته ومخاطباته .(٣٢)

ان الخطوة الاولى من عملية ابداع القصيدة تعيدنا مرة اخرى الى رأى ابن طباطبا من ان العقل هو جماع الادوات الشعرية لانه يبدأ مع العملية الشعرية منذ الخطوة الاولى ويصاحبها حتى استوائها قصيدة مكملة فيكون الشاعر واعيا لكمال عقله حين يخطو الخطوة الاولى في التفكير بالمعنى الذي يريد الشاعر اقامة القصيدة عليه . فنظم القصيدة لا يرد عفو الخاطر ولا في لحظة الهام لاصلة للوعي بها او لاسيطرة للعقل عليها وانما يكون العقل مالكا لزمام الامر منذ الخطوة الاولى في عملية الابداع الشعري وهنا يذكرنا باجابة الشاعر الاسلامي عبدالله بن رواحة شاعر الرسول (ص) حين دعاه الرسول (ص) يوما وسأله سؤالا يستثير فيه همته للرد على المشركين ، كيف تقول الشعر اذا قلته ؟ فيجيب عبدالله افكر فيه ثم اقول... وكان جواب عبدالله هو مارادہ الرسول (ص) التفكير في امر المشركين ثم الرد عليهم بالوسيلة التي تؤثر فيهم .. وبذا يأخذ الشاعر مكانه في النظر الى اهمية مايقوله ، والرسالة التي يجب ان يحملها بكامل وعيه ويعبر عنها .

لكن هذه النظرة قد تثير تساؤلا معينا هل يكون العقل حقا في حالة وعي كامل في المرحلة الاولى من مراحل ابداع القصيدة او هل يصاحب العقل الواعي عملية الابداع الشعري ام ان الشعراء ملهمون مبدعون يكونون في لحظة الالهام في حالة شبه غيبوبة عن الوعي والعقل والارادة . لقد ذهب كثير من الشعراء والادباء هذا المذهب في تفسير الابداع الشعري وكونه نابعا عن الالهام او اللاشعور وان لا دخل فيه للعقل الا في المرحلة اللاحقة وهي مرحلة اعادة النظر والتهذيب . وبذلك فسر القدماء مسألة الالهام وربطوها بما سموه بشياطين الشعراء .(٣٣)

---

(٣١) عيار الشعر ١١

(٣٢) نفسه ١٢

(٣٣) الحيوان ٦ / ٣٣١ . رسالة الغفران شرح كامل كيلاني ٤٧٨ . وانظر دراسة عبد الرزاق حميدة الموسومة بـ (شياطين الشعراء) .

لقد شغلت قضية الالهام والتفكير بلحظات الابداع بال النقاد القدماء والمحدثين العرب والاوربيين . فافلاطون مثلا يرى ان الشاعر لايمكن ان يكتب شعرا الا اذا فقد صوابه وعقله (واذا ظل الانسان محتفظاً بعقله فأنه لايستطيع ان ينظم الشعر أو يتنبأ بالغيب لذلك يفقدهم الاله صوابهم)(٣٤)

وقد ذكر ان دراسة ل س . م بورا لموضوع الالهام عند الشعراء يتضح فيها ان الاشعار الملهمة قصيرة النفس وان الالهام قد ينقطع بعد السطور الاولى من القصيدة وفي كل حال لان عقل الشاعر لايمكن ان يسخر لنقد نتاجه الملهم فحسب بل يكون وسيلة فعلية للنظم والتأليف فيتحرك عقله بالسرعة نفسها التي تتحرك بها حاستا النظر والسمع عنده(٣٥) . وينقل عن كولدرج قوله في شأن تحكم العقل في الابداع الشعري (علمت من استاذي ان الشعر منطقا خاصا به لايقل صراحة عن منطق العلم بل قد يفوقه صعوبة لانه ادق منه واكثر تعقدا . ولانه يرتكز على عوامل سريعة الانزلاق(٣٦) . وقد نقل عن كولدرج ايضا قوله مبينا اهمية الوعي في صنعة الشعر ، (ان العبقرية لاتستطيع ان تظهر نفسها دون الصنعة والجهد الواعي)(٣٧)

وهكذا تكون لابن طباطبا ريادة في هذا الرأي الذي كان غالبا وليد تجربته الشعرية والتي قد يشاركه فيها غيره من الشعراء او قد يختلفون عنه اختلافهم في طباعهم وقدراتهم الشعرية . ولحظات ابداعهم ودوافعها .. المهم ان ابن طباطبا من اوائل من تنبه الى هذا الضرب من التأليف الشعري الذي يدعى اصحابه ان العقل مواكب له مسيطر على مراحله بدءا من المرحلة الاولى الى مرحلة التفكير في المعاني او مقاصد الشعر وقد ربط الثعالبي وهو متأخر عن ابن طباطبا بين الشعر والنثر وكون الاول وليد الفكرة نثرا ثم يحوله الشاعر الى شعر حين عمد في احد كتبه الى حل النظم ونثر معانيه بأسلوب جميل ليدل على ان جمال الابيات الشعرية لايفتقد اذا كتب بنثر جميل . والعكس صحيح ايضا(٣٨)

---

(٣٤) المدخل الى النقد الادبي الحديث / محمد غنيمي هلال ـ مطبعة الرسالة ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ .

(٣٥) نقلا عن روز غريب ـ تمهيد في النقد الادبي ص ٨٤

(٣٦) تمهيد في النقد الادبي ـ ٨٥

(٣٧) كولدرج ، مصطفى بدوي ٩٤ وينظر الفصل القيم الذي كتبه يوسف حسين بكار ص ٣٧ من كتابه (بناء القصيدة في النقد العربي القديم) بشأن خلق القصيدة ومراحله حيث جمع آراء النقاد القدماء والمحدثين من الشعراء العرب والاوربيين بشأن خلق القصيدة وما يتعلق بها .

(٣٨) اسم كتاب الثعالبي (نثر النظم وحل العقد) وقد طبع ببيروت ـ دار صعب

٢ . تشكيل الفكرة النثرية بقوالب الشعر :

اما المرحلة الثانية لعملية الابداع الشعري فهي ان ينظم الشاعر ماجال في ذهنه نثرا فينظمه بالفاظ ملائمة للمعاني يسلكها كلها بقالب الابيات الشعرية وعلى ان يفكر بالوزن الذي يختاره والقافية التي يجب ان تكون ملائمة للمعنى وهو هنا لايفترض تكون القصيدة مرة واحدة او في مراحل متعددة تنثال فيها المعاني انثيالا يجعل ابياتها متسلسلة بوحي من اللحظات الشعرية التي يعيشها الشاعر انما يفترض ان يكون الشاعر واعيا كل الوعي مسيطرا سيطرة تامة على افكاره التي ينظمها شعرا دون ان يقيد ذهنه بشكل القصيد او وحدتها الموضوعية . وكل ماعليه ان ينظم الفكرة ببيت من الشعر يشغل به احدى القوافي وكأنّه يضع للقصيدة قوالب مقسمة الى أبياتلاينتظم فيها الا القافية ويحاول الشاعر نظم هذه القوالب من غير تنسيق للمعاني او تفكير بترابط الابيات . حتى اذا ملأ الحيز الذي وضعه لقوافي القصيدة كيفما اتفق انتقل الى الخطوة الثالثة في العملية الابداعية . ـ

(فاذا اراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكرة نثراً واعدّ له مايلبسه من الالفاظ تطابقه وألقوافي التي توافقه والوزن الذي سلس له القول عليه . فاذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه اثبته واعمل فكرة في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه على تفاوت مابينه وبين قبله)(٣٩)

ولا نظن ان ابن طباطبا يدعو هنا الى كون الشعر كلاما عاديا او نثرا عاديا في ذهن الشاعر في المرحلة الابداعية الاولى وانما يريد اقامته نثرا فنيا بما يحويه النثر من تصوير جميل للمعنى وليس مجرد فكرة اي فكرة . وقد كرر ابن طباطبا فكرة ارتباط الشعر بالنثر في اكثر من موضوع نفهم منه نظرته الموحدة الى الفن الادبي شعراً كان ام نثرا . وبذا تكون المرحلة الاولى في نظم القصيدة وهي مخض المعنى نثرا مرحلة فنية ايضا لان النثر الجيد في نظر ابن طباطبا لايقل مكانة عن الشعر الجيد وقد رأى ايضا أن الاشعار الجيّدة المحكمة المتقنة اذا نقضت وجعلت نثرا لم تبطل جودة معانيها ولم تفقد جزالة الفاظها(٤٠) .. وقد تابع ابو هلال العسكري ابن طباطبا في هذه الخطوة من عملية الابداع الشعري مفصلا رأي ابن

---

(٣٩) عيار الشعر ص . ١١

طباطبا من ان بعض المعاني لا يتمكن الشاعر من نظمه في قافية ولا يتمكن منه في اخرى . (واذا اردت ان تعمل شعراً فاحضر المعاني التي تريد نظمها فكرك واخطرها على قلبك واطلب لها وزناً يتأتي فيه ايرادها وقافية يحتملها(٥٠)

٣ . تسلسل الابيات وتلاحمها

في هذه المرحلة يخطو الشاعر بقصيدته خطوة اخرى حيث استطاع ان ينظم المعنى الذي دار في ذهنه شعرا . ووضعه في قالب القصيدة الذي اختاره فانتظم في ابيات متفرقة يجمعها وزن واحد وقافية واحدة . ولكنها تفتقد الترتيب والتنظيم فهي ابيات كثيرة ولكنها غير مترابطة . نظم الشاعر فيها كل مااراده من معان فيعمد الى اعادة ترتيبها فيضع البيت بعدالبيت ويقدم واحدا على اخر وقد يحتاج في هذه المرحلة الى نظم ابيات اخرى ليست لها علاقة مباشرة بالمعنى الذي قامت عليه القصيدة ولكنها ضرورية لربط معاني ابيات القصيدة الرئيسة بعضها ببعض لتكون اخيرا وحدة موضوعية للقصيدة تترابط فيها ابياتها ترابطا وثيقا . يقول ابن طباطبا (فاذا كملت له المعاني وكثرت الابيات وفق بينها بأبيات تكون نظاما لها ومسلكا جامعا لما تشتت منها)

ان عملية اعادة تنظيم ابيات القصيدة وترتيبها هي المرحلة الاولى في التهذيب الشعري بعد ان يفرغ الشاعر من نظم المعاني في ابيات منفردة متفرقة يسمى احد الباحثين هذه المرحلة بمرحلة التأليف والتنسيق . وانها لاتتضح الا عند ابن طباطبا ويشير اليها حازم القرطاجني اشارة عابرة .(٥١)

والمهم فيها ان الشاعر في نظر ابن طباطبا يلجأ في هذه المرحلة الى تلبية شرط الاجادة في القصيدة العربية وهو جعلها مترابطة الابيات قوية يحسن الشاعر فيها التخلص من معنى الى اخر ومن غرض الى غيره فيحتاج الشاعر ان يصل كلامه على تصرف فنونه صلة لطيفة فيتخلص من الغزل الى المديح ومن المديح الى الشكوى . الى الاستماحة ومن وصف الديار والآثار الى وصف الفيافي والنوق . بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله بل يكون متصلاً به وممتزجاً به معه(٥٢) .

---

(٥٠) الصناعتين ١٦١ . العسكري ٣٦٥ . تحقيق البجاوي وابو الفضل ابراهيم . القاهرة ١٩٥٢ .

(٥١) . بناء القصيدة في النقد العربي ص ٩٧ .

(٥٢) عيار الشعر ٣

ويقول ايضاً مطبقاً هذه الخطوة على اشعار الشعراء السابقين له باحثاً عن شواهد نموذجية تؤكد رأيه هذا ، وتبين ضرورة الاهتمام بهذه الخطوة وتوفير شرط تلاحم الابيات بمعانيها والفاظها يقول :ـ

(ينبغي للشاعر ان يتأمل شعره ، وتنسيق ابياته ويقف على حسن تجاورها او قبحه فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ويتصل كلامه فيها ، وان يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه وبين تمامه فضلاً من حشوليس من جنس ماهو فيه فينسى السامع المعنى الذي يسوق القول اليه كما انه يحترز من ذلك في كل بيت فلا يباعد كلمة عن اختها ولا يحجز بينها وبين تمامها بحشو يشينها(٤٣) .

وبهذا يوفر الشاعر لقصيدته بعض شروط الاجادة التي سماها النقاد فيما بعد بتلاحم اجزاء القصيدة والتي يريدون بها ان تكون القصيدة متسلسلة الإبيات لايحس القاريء بفجوة او انقطاع بين ابياتها حين ينتقل منمعنى الى اخرى، ومن غرض الى غيره فيحسن التخلص في معانيها ويجيد ترابط ابياتها ومعانيها ترابطاً يوفر لها وحدة موضوعية متكاملة .

ويعد الجاحظ من اوائل من سجل هذه الملاحظة المتعلقة بتلاحم اجزاء القصيدة من خلال اخبار نقلها عن الشعراء في مجال المفاخرة او المحاورة فيعلق الجاحظ على بيت احد الشعراء القائل ،

ويعض قريض القوم اولاد علة
يكد لسان الناطق المتحفظ

فيعلق عليه بقوله ، (واجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء ، سهل المخارج فتعلم بذلك انه قد افرغ افراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان(٤٤) ونقل رواية اخرى عن الشاعر عمرو بن لجأ يفخر فيها على اخر بقوله (انا اشعر منك قال ، وبم ؟ قال ، لانني اقول البيت واخاه وانت تقول البيت وابن عمه)(٤٥) يريد بهذا فخره بوجود الصلة الوثيقة المترابطة بين ابيات قصيدته .

---

(٤٣) عيار الشعر ١٣٩

(٤٤) البيان والتبيين ١ / ٦٦ / ٦٧ تحقيق عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجي ١٩٦٠

(٤٥) نفسه ١ / ٢٦٩

وتطورت هذه الفكرة فيما بعد . وعدت مقياساً من مقاييس عمود الشعر العربي فصل المرزوقي القول فيه وجعل عياره الطبع واللسان .

(فما لم يتعثر الطبع بأبنيته وعقوده ولم يتحبس اللسان في فصوله ووصوله بل استمرا فيه واستسهلاه بلا ملال ولا كلال فذاك يوشك ان يكون القصيد فيه كالبيت والبيت كالكلمة تسالماً . ولاجزائه وتقارناً)(٤٦)

٤ . اعادة النظر والتهذيب :

بعد ان تتخذ القصيدة شكلها الاول يقف الشاعر عند وقفة طويلة يظهر فيها خبرته وثقافته العامة . وحصيلته اللغوية والشعرية حيث يعمد الى اعادة النظر فيها متأملاً الفاظها وقوافيها فيلجأ الى تغيير اللفظة المستكرهة الثقيلة ويبدلها باللفظة السهلة النقية فليست هناك شروط خاصة باللفظ منفرداً ـ كما يفهم اول وهلة ـ وانما ما يستدعيه هذا الموضع من الالفاظ قد يستحسن في موضع آخر حسب المعنى الذي يتحدث عنه الشاعر والظرف النفسي والاجتماعي الذي ينظم فيه ابياته فللمعاني (الفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها)(٤٧) وهو رأي سبق للجاحظ ان فصل فيه القول(٤٨) . وصار فيما بعد شرطاً من شروط عمود الشعر العربي(٤٩) .

اما القوافي فأن اعادة النظر فيها واجب ايضاً لتكون موافقة لمعاني الشاعر وهنا ينبهنا ابن طباطبا الى أنّ القوافي ليست قوالب شكلية فحسب بل هي صدى موسيقي لا بد ان ينسجم مع المعنى الذي يريده الشاعر وهو اذا اعاد النظر في قصيدته فعليه ايضاً ان يعاود النظر في القوافي ايضاً فاذا اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني واتفق له معنى اخر مضاد للمعنى الاول وكانت تلك القافية اوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الاول نقلها الى المعنى المختار الذي هو احسن وابطل ذلك البيت او نقض بعضه واطلب لمعناه قافية تشاكله(٥٠) .

---

(٤٦)شرح ديوان الحماسة / المرزوقي ١ / ٢ ـ القاهرة ـ مصر ـ لجنة التأليف والترجمة ١٩٥١ . وانظر دراسات بلاغية ونقدية / احمد مطلوب ص ٤٤٥

(٤٧) عيار الشعر / ١١

(٤٨) انظر مثلا الحيوان ٣ / ٣١٦ ـ ٣٢٨ . البيان والتبيين ١ / ١٤٤

(٤٩) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ / ١٦ ـ ١٨

(٥٠) عيار الشعر / ١١

ويطبق اهمية هذه المرحلة على شواهد الشعر القديم في آخر كتابه في الفصل الذي كتبه عن (تأليف الشعر) داعيا الشاعر الى تفقد قوافيه ومصراع بيته هل يشاكل ماقبله . وهل يصلح مصراع اجود مكانه (وربما اتفق للشاعر بيتان يضع مصراع كل واحد منهما موضع الاخر فلا يتنبه الى ذلك الا من دق نظره . ولطف فهمه)(٥١). ثم يعزو بعض الخلل الذي احسه في اتفاق مصراعين مع افضلية احدهما على الاخر يعزوه الى الرواة والناقلين له حين يسمعون على جهة ويؤدون البيت على جهة المصراع الاخر سهوا او نسيانا . ويضرب لذلك مثلا قول امرىء القيس ،

كأني لم اركب جوادا للذة
ولم اتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم اسبأ الزق الروى ولم اقل
لخيلي كرّي كرة بعد اجفال

فيقول ، (هكذا الرواية وهما بيتان حسنان . ولو وضع مصراع كل واحد منهما في موضع الاخر كان اشكل وادخل في استواء النسيج كان يروي : ـ

كأني لم اركب جوادا ولم اقل
لخيلي كرة كرة بعد اجفال
ولم اسبأ الزق الروى للذة
ولم اتبطن كاعبا ذات خلخال(٥٢)

ان عملية التهذيب التي يجب ان تمر بها القصيدة في رأي ابن طباطبا تعكس تجربته الشخصية بالذات وان لم يصرح بها . وقد سبق للنقاد الذين سبقوه ان نبهوا الى ماهو معروف عند بعض الشعراء من ميل الى الصنعة والتهذيب حيث ذكروا زهيرا على انه صاحب الحوليات وما اصحاب الحوليات الا اولئك الشعراء الذين اولعوا بتهذيب اشعارهم ، وادامة النظر فيها فلا يخرجونها الا بعد ان يهذبوها وينقحوا الفاظها ومعانيها فلا تخرج للناس الا مهذبة خالية من المعايب اللفظية والمعنوية . ويبدو ابن طباطبا نفسه ليس من انصار مدرسة الصنعة والتهذيب فحسب وانما مقر بوجوب اخضاع القصيدة الشعرية الى هذه المرحلة من اعادة النظر وتهذيب الالفاظ والقوافي حتى تستوي جميع ابياتها جودة وجمالا فنيا . وهذا

---

(٥١) المصدر نفسه ١٢٩
(٥٢) عيار الشعر ١٣٠

يذكرنا بتعبير بعض النقاد الذين سبقوا ابن طباطبا فوصفوا الشعر بالصناعة، والعملية الشعرية بالمهنة التي يتفاوت فيها اصحابها بمقدار تفننهم وابداعهم فيها كصناعة النسيج والرسم والصياغة(٥٣). فيقول ابن طباطبا (ويكون كالنساج الحاذق الذي يغوف وشيه بأحسن التفويف ويسديه وينيره ولا يهلهل شيئا منه فيشينه وكالنقاش الرقيق الذي يصنع الاصباغ في احسن تقاسيم نقشه ويشبع كل صبغ منها حتى يتضاعف حسنه في العيان وكناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها)(٥٤).

وللقارىء ان يتساءل، اذا كان على الشاعر ان يخضع قصيدته في مرحلتها الاخيرة الى التهذيب والصقل فلابد ان تكون في ذهنه اسس معينة وخطوط نقدية عامة يميز بها بين الالفاظ والقوافي حتى يستطيع ان يهذب قصيدته وفقها بعد ان اشترط عليه منذ البداية ان يكون شاعراً بطبعه ومهذباً لهذا الطبع قبل ممارسته لنظم الاشعار.

واذا بحثنا عن آراء ابن طباطبا النقدية المتعلقة بالاسس التي يجب توافرها في النص الجيد وجدناه يجعلها مقترنة بشروط اللفظ الجيد، وموافقته للمعنى الذي يطرحه والظرف الذي يتحدث فيه. وهو في هذه الشروط لايخرج عما وضعه من قبله من النقاد والادباء من وجوب تجنب الالفاظ الغريبة الوحشية او الثقيلة المستكرهة الا انه اضاف اليها خبرته في النظر الى القصيدة متكاملة موحدة. فلا يجوز للشاعر اذا كان قد اختار لشعره اسلوبا بدويا ان يخلطه بالفاظ الحاضرة، كما لايجوز له ان كان اسلوبه حضريا مولدا اقحام الفاظ بدوية في اشعاره فأبن طباطبا يشترط وحدة الاسلوب في القصيدة الواحدة بقوله، (الشاعر اذا اسس شعره على ان يأتي فيه بالكلام البدوي الفصيح لم يخلط به الحضري المولد، واذا اتى بلفظة غريبة اتبعها اخواتها وكذلك اذا سهل الفاظه لم يخلط بها الالفاظ الوحشية النافرة الصعبة القيادة(٥٥).

---

(٥٣) يراجع في هذا قول ابن سلام في طبقات فحول الشعر، تحقيق محمود محمد شاكر دار المعارف، مصر. والجاحظ في قوله الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير). الحيوان ٢/ ٣٣٠ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة.

(٥٤) عيار الشعر ٢

(٥٥) عيار الشعر ٢

وقد تابع بعض الادباء والشعراء ابن طباطبا في محاولته الشعرية هذه لتحليل خطوات خلق القصيدة ونظمها مما يدل على ان الالتفات الى هذا الجانب من اسرار الابداع الشعري امر شغل بال الشعراء الذين عانوا فعلا خلال عملية الخلق الشعري وقد سجلها ابن طباطبا وجعلها مقياسا لضرب من الابداع الشعري القائم على التنقيح والتهذيب وتحكيم الفكر والعقل الواعيين .
وقد تابعه في هذا الرأي ابو هلال العسكري وهو ناقد وشاعر ايضا بقوله .

(واذا اردت ان تعمل شعرا فاحضر المعاني التي تريد نظمها في فكرك واخطرها على قلبك واطلب لها وزنا يتأتى فيه ايرادها وقافية يحتملها . فمن المعاني ما تتمكن من نظمه في قافية ولا تتمكن منه في اخرى . وتكون هذه اقرب طريقا وايسر كلفة منه من ذلك ولان تعلو الكلال فتأخذه من فوق فيجيء سلسا سهلا ذا حلاوة ورونق خير من ان يعلوك فيجيء ركزا فجا ومتجعدا جلفا . فاذا عملت القصيدة فهذبها وتقحها بالقاء ماغث من ابياتها ورث ورذل والاقتصار على ماحسن وفخم بابدال حرف منها باخر اجود منه حتى تستوي اجزاؤها وتتضارع عواديها واعجازها)(٥٦) .

اما ابن رشيق فقد خالف ابن طباطبا والعسكري في امر واحد وهوانه ينظم البيت في القصيدة دون ان يسبقه باختيار القافية مصرحا بأن الرأي هو ان لايضع الشاعر بيتا لايعرف قافيته غير انه لايجد ذلك في طبعه وهو حين ينظم الاشعار فيقول (بل اصنع القسم الاول على مااريده ثم التمس في نفسي مايليق به من القوافي بعد ذلك فابني عليه القسم الثاني . افعل ذلك كما يفعل من يبني البيت على القافية ولم ار ذلك بمخل علي ولا يزيحني عن مرادي . ولا يغير على شيئا من لفظ القسم الاول الا في الندرة التي لا يعتمد بها او على جهة التنقيح المفرط)(٥٧) . ويقول اسامة بن منقذ ملخصا تجربته الشعرية داعيا الشعراء الى احتذائها ، (واعمل الابيات متفرقة على مايجود به الخاطر ثم انظمه في الاخر وحل المبدأ او المقطع والخروج فهو اصعب ما في القصيدة وميز في فكرك محط الرياسة ومصب القصيدة فأنه اسهل عليك واشعرها اولا وهذبها اخيرا)(٥٨) .

---

(٥٦) الصناعتين ١٣٦

(٥٧) العمدة ١/ ٢٠٠ وقد تمثل ايضا برواية عن سؤال الرسول (ص) لعبد الله بن رواحة عن نظمه الشعر وقول الاخير ابياته ولم يكن قد اعد شيئا .

(٥٨) البديع في نقد الشعر ٢٩٥ . وانظر بناء القصيدة ص ٧٥

وقد تبنى حازم القرطاجني هذا المذهب ايضاً في عرضه لكيفية نظم القصيدة والمراحل التي تمر بها في ذهن الشاعر(٥٩) .

على ان هناك مأخذ اخذت على ابن طباطبا في مسايرته لعملية خلق القصيدة وهي انه يمثل اتجاهاً فنياً واحداً في الخلق الشعري مهملاً الاتجاه الاخر ـ اتجاه الطبع ـ ان ابن طباطبا يمثل اتجاه الصنعة والتهذيب الذي امتدت جذوره الى العصر الجاهلي متمثلاً باوس بن حجر وزهير بن ابي سلمى وابنه كعب والحطيئة الذين كانوا يعنون باعادة النظر في اشعارهم بغية تهذيبها وتقويمها وان هناك ضرباً كبيراً من الشعراء الذين ينظمون اشعارهم على الطبع والسجية دون ان يكلفوا انفسهم اعادة النظر فيها او تهذيبها مدعين ان قصائدهم تظهر متكاملة مطبوعة ليست بحاجة الى صنعة وتهذيب . وقد تنبه ابن قتيبة من قبل الى هذين الضربين او الاتجاهين في نظم الاشعار قائلاً ،

(ومن الشعراء المتكلف والمطبوع . فالمتكلف هو الذي قوم شعره بالثقافة ونقحه بطول التفتيش . واعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة . وكان الاصمعي يقول زهير والحطيئة واشباههما من الشعراء عبيد الشعر لانهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . وكان الحطيئة يقول ، (خير الشعر الحولي المنقح المحكك وكان زهير يسمي كبرى قصائده الحوليات(٦٠) والمتكلف من الشعر في نظر ابن قتيبة فأنه لا يخفى على ذوي العلم لتبينهم فيه وانزل بصاحبه من طول التفكر وشدة العناء ورشح الجبين(٦١) .

وحين تبنى ابو هلال العسكري هذا الرأي فصله ايضاً وضرب مثلاً له جماعة من حذاق الشعراء من المحدثين والقدماء منهم زهير وكان يعمل القصيدة في ستة اشهر ويهذبها في ستة اشهر ثم يظهر فتسمى قصائده الحوليات . وكان ابو نؤاس يعمل القصيدة ويتركها ليلة ثم ينظر فيها فيلقي اكثرها . ويقتصر على العيون منها فلهذا قصر اكثر قصائده وكان البحتري يلقي من كل قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به فخرج شعره مهذباً . وكان ابو تمام لا يفعل هذا وكان يرضى بأول خاطر فنعي غليه عيب كثير(٦٢) .

---

(٥٩) انظر بناء القصيدة ص ٩٤ ـ ٩٦

(٦٠) البيان والتبيين ٢ / ٩ ـ ١٤ . الشعر والشعراء ١ / ٧٨

(٦١) المرجع نفسه ١ / ٨٨

(٦٢) الصناعتين ١٤١

وابن طباطبا نقل لنا تجربته الشعرية التي تمثل هذا الاتجاه الفني لدى بعض الشعراء الميالين الى الصنعة مهملاً اولئك المطبوعين الذين يصدرون في اشعارهم عن سليقة قويمة وطبع اصيل متخطين في نظم قصائدهم كل المراحل التي اشار اليها ابن طباطبا او اكدها. والقصيدة لديهم تبدو متكاملة وتخلق عفو خواطرهم دون تحكيم لعقولهم او ارادتهم. وقد ابان عبد القاهر الجرجاني هذا المذهب في النظم وهو عدم الحاجة الى بذل الجهد الفكري في ترتيب الالفاظ اذا وفق الشاعر في اختيار المعاني ستتأتى عليه اشالاً. وتسيل في فكره الابيات طواعية فيقول (اذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج الى ان تستأنف فكراً في ترتيب الالفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم انها خدم للمعاني. وتابعة لها. ولا حقة بها. وان العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الالفاظ الدالة عليها)(٦٣).

ولعله في هذا ينقل تجربة عدد من الشعراء الذين لا يميلون الى الصنعة ويصدرون في اشعارهم عن طبع وسليقة وليسوا هم بحاجة الى تأمل وتفكر وتعمد في اختيار الالفاظ المناسبة للمعاني او تهذيبها.

وهناك مأخذ اخر يوجه الى ابن طباطبا وبحثه في خلق القصيدة وهو انه لا يعترف بالالهام او ما يشير الى معناه ومفهومه. (واي قاري عادي لهذه العبارات يدرك لاول وهلة ان عملية الخلق الفني هذه التي يتحدث عنها ابن طباطبا انما هي عملية خلق صناعي وربما كان لفظ الخلق مبالغاً فيه بالنسبة لما تضمنه من تلفيق وترقيع المعاني والالفاظ والقوافي كما ان ابن طباطبا لا يعترف بأي شيء اسمه الالهام فهو يريد من الشاعر ان يمخض المعنى في فكره نثراً. والشاعر الحق لا يفكر نثراً قط)(٦٤).

واذا كان في هذا الرأي جانب كبير من الصحة فأننا يجب ان لا نسلم تماماً بأن ابن طباطبا قد اهمل فكرة الالهام او الموهبة لانه قد تحدث عنها بشكل او بآخر في تعريفه للشعر. وحديثه عن ادواته. اما في عملية خلق القصيدة فأنه يمثل حديثاً لتجربة شاعر لم يكن من الشعراء المطبوعين الذين يكتفون بقول

---

(٦٣) دلائل الاعجاز ٣٨. وانظر في هذا كتاب حسين بكار (بناء القصيدة العربية) ص ٩٢ وفصله القيم في مقارنة مذاهب القدماء والمحدثين في هذه المسألة ونقله لاقوال الشعراء المعاصرين وتجاربهم الشعرية في خلق القصيدة بتحكيم الفكر في كل مرحلة من مراحلها وانسيابها تلقائياً وطوعاً.

(٦٤) مقالات في النقد الادبي / هداره / ١٧٦ عن حسين بكار في بناء القصيدة ص ٧٨

الشعر على الطبع والسجية دون اعادة النظر ممثلاً لشعراء الصنعة الذين كثروا في العصر العباسي ومثلوا اتجاهاً فنياً غالباً بين الشعراء(٦٥) .

ان هذا النموذج للشعراء الذين يعانون خلال عملية الابداع الشعري ويحاولون اعادة النظر في اشعارهم ليس وليد العصر العباسي فحسب بل اننا اذا بحثنا في نماذج كثيرة قبل هذه الفترة فأننا نجد شواهد تدلنا على ذلك النمط من الشعراء الذين يفكرون فيما ينظمون ويجهدون انفسهم في الوصول الى الاجمل والاجود من الاشعار والقصائد والفرزدق وهو فحل مضر في زمانه كان يقول (تمر علي الساعة وقلع الضرس من اضراسي اهون علي من عمل بيت من الشعر)(٦٦) . وانه كان يضطر احياناً في ساعة تملك الرغبة الى قول الشعر الى ركوب ناقته والطواف في الاودية منفرداً(٦٧) . ووراء كل هذه الشواهد ادلة قوية على ان بعض الشعراء كانوا يعينون موهبتهم بخلق الجو النفسي الذي يحفزها ويقويها حتى اذا واتاه طبعه اعادة بقدرته على التهذيب واعادة النظر فيما نظم لتقويم مبانيه وتهذيب ما قبح (ولاشك في ان مجرد النظر في حياة هؤلاء الرجال وفي الامكانيات الفنية التي اتيحت لهم وفي طريق تقديرهم للقصيدة . وفي اعتبارهم الشعراء اداة منتجة يقدر عليها صاحب الاستعداد الواقع ان ذلك كله يدفعنا لأول وهلة الى ان نعتبر الشاعر رجلاً عادياً وليس هذا النبي العجيب(٦٨) .

هذا الرجل العادي الذي يمتلك موهبة الشعر بحاجة الى من يقوم موهبته ويعينه على صقلها وتهذيبها واكمال الاداة الشعرية التي تقربه نحو الفن الشعري الجميل . هذا الرجل هو ابن طباطبا نفسه والذي يحاول ان يرسم الطريق الشعري ويمهده لنفسه ولا مثاله من الشعراء الذين هم بحاجة الى الصقل والى الاستفادة من تجارب الاخرين الشعرية .

---

(٦٥) انظر آراء النقاد الشعراء المحدثين الذين يرون العملية الشعرية ابداعاً وصنعاً والاتجاه الاخر بشأن البديهة والارتجال والمعاودة في نظم الاشعار في بناء القصيدة ص ٨٢ ـ ٨٦ .

(٦٦) العمدة ـ ١٣٦ .

(٦٧) نفسه .

(٦٨) دراسات في النقد الادبي ـ احمد كمال زكي ص ٢٨

محنة الشعراء المحدثين وعملية الابداع الفني :

لقد شغلت عملية الابداع الفني وصنع القصيدة الجيدة فكرا ابن طباطبا والف كتابه لتيسير سبل انجاح هذه العملية جاعلاً العقل الواعي هو الماسك لزمام الامر في مراحل تكوين القصيدة . كل هذا شغل بال ابن طباطبا ولكنه ما يزال يشعر ان ماقدمه لايحل ازمة الشعر المعاصر في زمانه لانه نفسه كان شاعراً ومعاناته بحثاً عن الجيد والبديع من الشعر هي التي جسدت له قضية الشعر المحدث اكثر مما تجسدت لغيره وحتى خيل اليه ان مايعانيه شعراء عصره هو محنة كبيرة لا بد ان تبحث وان يفكر لايجاد مخرج وحل .

واساس محنة الشعراء قائم على المثل الشعري الاعلى ـ الشعر القديم ـ فقد اخذ هذا المثل هالة كبيرة في اذهان الناس فكل مايأتي به الشاعر المحدث لابد ان يقارن بتلك الهالة الكبيرة . وسرعان مايتلاشى ضوء المحدث ازاء بريق الشعر القديم وجمال معانيه واساليبه . فكيف يتسنى للشاعر المحدث ان يأتي بالجيد الجديد الذي يضاهي القديم جمالاً وابداعاً ولا يكون عالة عليه ؟؟؟ .

لقد تحولت مسيرة النقد العربي في قضية الشعر المحدث عند ابن طباطبا تحولاً كبيراً فبعد ان طالب الجاحظ وابن قتيبة من بعد بالنظر الى الشعر المحدث نظرة انصاف وعدل . والحكم للجيد منه دون التأثر بقدم العهد او حداثته . تسنى لهذه الفكرة ان تثبت صحتها في الجيد الجميل الذي ابدعه الشعراء المحدثون وصار امر الاعتراف بهم لايثير خلافاً كبيراً منذ ان احتلت قائمة المؤلفات في شعر المحدثين واجهة من واجهات التأليف في القرن الثالث .

لقد اتضحت معالم هذا الشعر وتنبه المؤلفون والنقاد اليه والفت فيه مؤلفات ترصد ظواهره الفنية واغراضه الشعرية ولكن المسألة عند ابن طباطبا قد تجاوزت رصد الشعر المحدث او اثبات وجوده فتلك مسألتان لم يعد بحاجة اليهما وانما نظر الى حالة هذا الشعر وما يعانيه من ازمة الابداع الفني باحثاً وسط ضباب الركام الشعري القديم والحديث عن قبس يأخذ بيد الشاعر ويخرجه من ازمته . فما اسباب هذه الازمة وما السبيل الى الخروج منها . هنا تبدو محاولة ابن طباطبا جادة وجديدة في الوقت ذاته لانه حاول وضع يده على خطوط ماسماه بالمحنة التي يعاني منها شعراء زمانه باحثاً عن سبل تأخذ بأيديهم للخروج منها او لتخفيف الازمات التي يمرون بها وهم يسلكون طريق الشعر والابداع الفني ونستطيع ان نجد مجمل آرائه في اسباب المحنة متمثلة بما يلي : ـ

اول هذه الاسباب احساس ابن طباطبا ـ الذي يمثل احساس الشعراء المحدثين ـ ان الشعراء القدماء قد استوفوا الحديث من المعاني وتداولوا الافكار التي يمكن ان تخطر ببال الشاعر بصور واخيلة جميلة لم تترك مجالاً للشاعر المحدث لأن يضيف اويبدع اكثر مما ابدعوه .. وهذه الفكرة ليست جديدة بحد ذاتها فمنذ العصر الجاهلي سمعنا اصواتاً مبدعة اصيلة تشكو من الفقر الى المعاني او الاحساس بأن ما يمكن ان يقولوه سبقوا اليه . فأمرؤ القيس الذي عرف بأنه سبق الشعراء الى اشياء ومعان احتذوا حذوة فيها . يعلن في احدى لحظات القول الشعري حيرته بأن ما يقوله ليس الا تكراراً لما قاله السابقون ،

ماارانا نقول الا معارا
أو معادا من قولنا مكرورا

وعنترة بن شداد يعلن في مطلع قصيدته بأن الشعراء لم يتركو له مجالا للقول

هل غادر الشعراء من متردم
ام هل عرفت الدار بعد توهم

ومع ذلك فقد صار هذان الشاعران جزءاً من المثال الشعري الاصيل والرصيد الفني الذي لايطال وصارا مع حصيلة الشعر العربي القديم سبباً من اسباب محنة الشعراء المحدثين التي عرض لها ابن طباطبا .

ان البحث عن الجديد الجيد هو شغل الشاعر في كل زمان ومكان . فاذا كانت هناك نماذج فنية عالية اقتنع الشاعر بجودتها واحتذى حذوها فأن مشكلته ستكون اكبر مما لو طلب الجيد الجديد دون مقارنته بما سبق . وهنا تبدو ملامح المحنة الشعرية قاسية صعبة في نظر ابن طباطبا بسبب سيطرة المثل الشعري القديم على ذهنه واعجابه به الى درجة ضيقت عليه انفاسه وجعلته يفكر فيها لا على انها مشكلته هو وانما هي مشكلة كل الشعراء المعاصرين له .

(والمحنة على شعراء زماننا في اشعارهم اشد منها على من كان قبلهم لانهم قد سبقوا الى كل معنى بديع ولفظ فصيح وبحلة لطيفة وخلابة ساحرة فأن اتوا بما يقصر عن معاني اولئك ولا يربي عليها لم يتلق بالقبول (٦٩) وتبدو النماذج

(٦٩) عيار الشعر ١٥

الشعرية التي اختارها في كتابه دليلاً على سيطرة الشعر القديم على ذوقه الفني مع رغبته في ابراز الحسن الجيد من الشعر المحدث .

وقبل ان يبحث ابن طباطبا عن الحلول التي تخرج الشاعر المحدث من الازمة ويدعوه الى التريث في الحكم على الشعر القديم فاذا اتفق له في اشعار العرب التي يحتج بها تشبيه لايتلقاه بالقبول او حكاية يستغربها فليبحث عنه ولينفر عن معناه فأنه لايعدم ان يجد تحته خبيئة اذا اثيرت عرف فضل القوم بها . وعلم انهم (ادق طبعاً من ان يلفظوا بكلام لا معنى تحته وربما خفي عليك مذهبهم في سنن يستعملوها بينهم في حالات يصفونها في اشعارهم فلا يمكنك استنباط ما تحت حكاياتهم ولا تفهم مثلها الا سماعاً فاذا وقفت على مااراده لطف موقع ماتسمعه من ذلك عند فهمك)(٧٠) وكل هذا يدل على ولع ابن طباطبا بالشعر القديم ناظراً اليه نظرة اعجاب وتقدير ولكنه في الوقت نفسه يحاول ان يبحث عن طريق يفلت فيه من طوق هذا الجيد الاصيل الذي طغى على اذواق الشعراء والنقاد معاً .

٢ . اما ثاني اسباب المحنة فيظهر في نظرة ابن طباطبا الى دوافع الشعر ومقارنته بين القديم والحديث فيها . واجلاله للشعر القديم جعله يصدر حكماً عاماً بشأن دوافع القول لدى الشعراء حيث خيل اليه انهم كانوا اكثر صدقاً من الشعراء المحدثين وان دوافعهم على القول كانت منبعثة من صدق مواقفهم واحاسيسهم معاً وانهم كانوا يؤسسون اشعارهم (في المعاني على القصد للصدق فيها مديحاً او هجاء وافتخاراً ووصفاً وترغيباً وترهيباً)(٧١) . ويستثنى من ذلك الاوصاف والاخيلة والتشبيهات التي تحتمل الكذب والتي يلجأ فيها الشعراء الى اخيلتهم قصد الاغراق في الوصف والتشبيه ولكن حكمه يبقى عاماً في دوافع الشعر لدى الشعراء القدماء وانها كانت قائمة على الصدق .

اما الشعراء المحدثون فقد افتقدوا دوافع القول الصادق والممدوحون هم ايضاً يعرفون هذا ويثبتون الشعراء على ما يستحسنونه من لطيف اشعارهم وبديع معانيهم وانيق قولهم (فاذا كان المديح ناقصاً عن الصفة التي ذكرنا كان سبباً لحرمان قائله او المتوسل به واذا كان الهجاء كذلك ايضاً كان سبباً لاستهانة المهجوين . وامنه من سيره ورواية الناس له)(٧٢) .

---

(٧٠) عيار الشعر ٧

(٧١) نفسه ـ ١٥

(٧٢) نفسه

ان هذا السبب من اسباب المحنة يرجع (الى الوظيفة الاجتماعية للشاعر وما فرضته من قيود على نظم الاغراض المتصلة بالسلطة التي يتوجه اليها الشاعر بشعره سواء كان مادحاً لها او هاجياً لاعدائها او راثياً من مات ممن يمثلها . وان العلاقة بين الشعر القديم قبل الاسلام وفي صدر الاسلام كانت علاقة متميزة يباح للشاعر فيها أن يصدر في مدحه وهجائه عن قناعته الخاصة . ولكن هذه العلاقة بين الشاعر القديم والسلطة الحاكمة قد تغيرت في عصر ابن طباطبا. فمن ناحية لم يعد ممثلو السلطة يقبلون من الشاعر الا ما يوافق قناعتهم هم لاقناعة الشاعر. وبالتالي ما ما يوافق مصالحهم الخاصة لاتصورات الشاعر ومن ناحية اخرى لم يعد الشاعر قادراً ـ لعوامل متعددة ـ على ان يكون صادقاً في نظمه الذي يتوجه اليهم بشكل يقارب الصدق القديم)(٣٣)

ويبدو في هذه النظرة شيء من القصور لتحديدها مهمة الشاعر الاجتماعي بالسلطة الحاكمة راثيا او مادحا او هاجيا اعداءها . اليس هناك في عصر ابن الطباطبا من خرج عن هذا الطوق ومن فر من أسر السلطة الحاكمة ؟ ان ابن طباطبا لم يكن اسير السلطة . ودائرا في فلكها . وما وصل من اشعاره يدل على شخصية الشاعر القرشي الذي ربأ بنفسه عن اماديح متزلفة لو قصائد مزيفة المشاعر ولعل قوله في هذا حكم عام اصدره على الكثرة الكثيرة من الاشعار التي قرأها ورصد دوافع القول لدى اصحابها وليس من منطلق تجربته الشخصية فحسب .

٣ وثالث اسباب المحنة يظهر ـ في رأي ابن طباطبا ـ في بعد الشعراء عن الاصالة العربية وكون اشعارهم صادرة عن تكلف ومعاناة بخلاف الشعر القديم الذي صدر فيه اصحابه عن طبع عربي صحيح ولغة قويمة (كأشعار العرب التي سبيلهم في منظومها سبيلهم في منثور كلامهم الذي لا مشقة فيه) .

وبعد ان بين ابن طباطبا اسباب معاناة الشاعر المحدث في نظمه الاشعار حاول ان يرسم خطوطا عامة تخرجه من هذه الازمة واول خط ينبغي السير عليه هو التريث في اعلان القصيدة واظهارها . والدعوة الى تجويدها واعادة النظر فيها حتى يتأكد من سلامتها من العيوب التي نبه وامر بالتحرز منها وقد مر بنا من قبل ان

---

(٣٣) مفهوم الشعر ٣٠

ابن طباطبا يخضع القصيدة في مرحلتها الاخيرة من عملية الابداع الى التنقيح والتهذيب . ودعوته هذه منصبة على رغبته في الاتيان بالجديد الذي لايعاب اذا قورن بالقديم . ولا يستسقط اذا وضع جنب الاشعار الجيدة المقبولة . ولكن سيطرة الشعر القديم ماتزال مالكة ذوق ابن طباطبا وعقله فهو حين يدعو الى تهذيب القصيدة وعدم ابرازها للناس الا بعد التأكد من سلامتها وخلوها من العيوب ماتزال الاشعار القديمة مقياسه في المثال الفني الذي يريده الا انه ينبه الى شيء مهم جدا هو الدعوة الى الاحتذاء حذو الجيد من الشعر القديم فاذا وجد الشاعر في شعره مأخذا او عيبا سبق لشاعر قديم ان وقع فيه فلا يجوز اتخاذه مسوغا للخطأ (فينبغي للشاعر في عصرنا ان لايظهر شعره الا بعد ثقته بجودته وحسنه وسلامته من العيوب التي نبه عليها وامر بالتحرز منها .. ونهى عن استعمال نظائرها ولا يضع في نفسه ان الشعر موضع اضطرار . وانه يسلك سبيل من كان قبله ويحتج بالابيات التي عيبت على قائلها فليس يقتدي بالمسيء وانما الاقتداء بالمحسن)(٣٦) .

ومن هنا كانت دعوة ابن طباطبا الى ادامة النظر في الشعر القديم وتفحص معانيه وفهم موارده دون ان يحوله هذا الفهم الى مجرد ناسخ او مقلد بل لتكون بين يديه وفي ذهنه مواد جيدة اصيلة يغرف منها متى شاء نظم قصيدة او معنى شرط ان تكون هذه المواد مواتية لطبع اصيل وموهبة شعرية تختلط مع ثقافته لتكون له فيما بعد شخصية مستقلة تمتد فيها جذور الماضي دون ان يمسخ شخصيته . وتبرز في اشعاره روح المعاصرة دون ان تكون مقطوعة عن اوجه الابداع الشعري القديم ويصور ابن طباطبا بذكاء مهمة الثقافة الشعرية القديمة وعدم سيطرة ملامحها على شخصية الشاعر بقوله .

(فكانت تلك النتيجة كسبيكة مفرغة من جميع الاصناف التي تخرجها المعادن وكما قد اغترف من واد قد مدته سيول جارية من شعاب مختلفة وكطيب تركيب من اخلاط من الطيب كثيرة فيستغرب عيانه(٣٧) ولتوضيح كيفية انماء الشخصية المتفردة البعيدة عن التقليد يضرب ابن طباطبا مثالا تاريخيا لرجل عرف البلاغة والخطابة حكى تجربته الثقافية التي عمد فيها ابوه الى تحفيظه الف خطبة ثم قال له ، تناسها فتناسيتها فلم ارد بعد ذلك شيئا من الكلام الاسهل علي يريد بهذا ان

---

(٣٦) عيار الشعر ١٦
(٣٧) نفسه

ماحفظه هذا الخطيب من خطب القدماء الجيدة كان معينا له على القول ورياضة لفهمه وتهذيبا لطبعه وتلقيحا لذهنه وسادة لفصاحته وسببا لبلاغته ولسنه وخطابته(٣٦).

فاذا تثقف الشاعر ثقافة اصيلة ونهل من ينبوع الشعر الجيد مع طبع وموهبة شعرية فأنه يستطيع ان يخطو خطوة ثانية في سبيل الخروج من المحنة الشعرية وهي الاستفادة من المعاني التي ادارها الشعراء القدماء في اشعارهم استفادة لايهتم فيها بالسرقة او التقليد ولا يبتعد فيها عن الاصالة والابتكار (فلا يغير على معاني الشعراء فيودعها شعره . ويخرجها في اوزان مخالفة لاوزان الاشعار التي يتناول منها مايتناول ويتوهم ان تغييره للالفاظ والاوزان مما يستر سرقته او يوجب له فضيلة)(٣٧). ويذكرنا رأيه هذا بالسرقة برأي ابن المعتز الذي لم يسم فيه اخذ الشاعر معاني من سبقه سرقة الا اذا لجأ الى اخذ المعنى بالفاظه وتعابيره واساء ايراده . وهذا يعني ان التفات هذين الشاعرين الناقدين الى مسألة السرقات والتسامح فيها والتمييز بين الاستفادة من المعنى او الاغارة على بيت شاعر مرده الى تيار وجد في هذا العصر سببه الاحساس بمشكلة الشاعر المحدث . ومعاناته في القول ومطالبته بالابتكار شأنه شأن الشاعر القديم . وما محاولة ابن طباطبا هنا الا رغبته في توسيع نطاق القول للشاعر ومنحه حرية اخراج المعنى القديم اخراجا جديدا شرط ان يكون مجيدا في اخذه للمعنى حتى يبدو وكأنه يورد اول مرة فالاطلاع على الجيد من الاشعار القديمة والاحتذاء حذوها دون تقليد متعمد او مسخ لشخصية الشاعر واصالته . كل هذه خطوات نحو حل اسباب محنة الشعراء المحدثين . اما كيف يصل الشاعر الى هذا المستوى من الاستفادة من معاني الشعراء دون الاتهام بالسرقة فأن ابن طباطبا يحاول توضيح السبيل اليه ويدعو الشاعر الى تطبيق اكثر من محاولة او وجه للاستفادة من معاني الاقدمين نستطيع توزيعها كما يلي :

١ . اذا تناول الشاعر المعاني التي سبق اليها فابرزها في احسن من الكسوة التي عليها لم يعب بل وجب له فضل لطفه واحسانه منه كقول ابي نؤاس :

---

(٣٦) نفسه

(٣٧) عيار الشعر ١١

وان جرت الالفاظ منا بمدحه
لغيرك انسانا فأنت الذي نعني

اخذه من الاحوص حيث يقول ،

متى ما اقل في آخر الدهر مدحه
فما هي الا لابن ليلى المكرم

ويحتاج من سلك هذا السبيل الى الطاف الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق اليها .

٢ . استعمال معاني الشعراء الاقدمين في غرض غير الغرض الذي اوردوها فيه فاذا وجد الشاعر معنى لطيفا في تشبيب او غزل استعمله في المديح وان وجده في المديح استعمله في الهجاء .

٣ . استبدال الصورة التي ورد فيها المعنى بصورة اخرى تظهره بمظهر جديد يعوه الاخذ والسرقة فأن وجد الشاعر معنى في وصف ناقة او فرس استعمله في وصف الانسان وان وجده في وصف الانسان استعمله في وصف بهيمه فأن عكس المعاني على اختلاف وجوهها غير متعذر على من احسن عكسها واستعمالها في الابواب التي يحتاج اليها فيها .

٤ . اخذ معاني النثر اللطيفة منها في الاشعار .

(وان وجد المعنى اللطيف في المنثور من الكلام او في الخطب والرسائل فتناوله وجعله شعرا كان اخفى واحسن) .

ومايزال المثال الذي ضربه النقاد من قبل في ذهن ابن طباطبا وهو تشبيه الشعر بالصناعة والشاعر بالصائغ او الصباغ او النساج المتفنن . فاذا ابرز الصائغ ماصاغه في غير الهيئة التي عهد عليها . واظهر الصباغ ما صبغه على غير اللون الذي عهد قبل التبس الامر في المصوغ وفي المصبوغ على رأيهما . فكذلك المعاني واخذها واستعمالها على اختلاف فنون القول فيها(٧٨) .

---

(٧٨) عيار الشعر ٨١

ويؤكد ابن طباطبا نصيحته بأخذ معاني النثر الواردة في الخطب والاقوال البليغة وايرادها في الاشعار ويقارن بين النثر والشعر فيجدهما متماثلين في التفنن في المعاني وينقل خبرا عن العتابي سئل فيه عن سبب بلاغته فقال ، يحل معقود الكلام فالشعر رسائل معقودة . والرسائل شعر . واذا فتشت اشعار الشعراء كلها وجدتها متناسبة اما تناسبا قريبا او بعيدا . وتجدها مناسبة لكلام الخطباء وخطب البلغاء وفقر الحكماء .

ثم يختار نصوصا نثرية اخذ الشعراء معانيها فيوردها على سبيل التطبيق والمران فعطاء بن ابي صيفي الثقفي قال حين دخل على يزيد بن معاوية معزيا ومهنئا وهو اول من عزى وهنأ في مقام واحد ، اصبحت رزيت خليفة الله . واعطيت خلافة الله قضى معاوية نحبه فيغفر الله ذنبه ووليت الرياسة وكنت احق بالسياسة فأشكر الله على عظيم العطية واحتسب عند الله جليل الرزية .. فأخذه ابو دلامة فقال يرثي المنصور ويهني المهدي ، ـ

عينان واحدة ترى مسرورة
بامامها جذلى واخرى تذرف
تبكي وتضحك تارة ويسؤها
ما انكرت ويسرها ماتعرف
فيسوؤها موت الخليفة اولا
ويسرها ان قام هذا الا رأف
ماأن سمعت ولا رأيت كما ارى
شعرا ارجله واخر انتف

٥ . عكس المعنى وتكراره في شعر الشاعر الواحد بعبارات مختلفة واذا انقلبت الحالة التي يصف فيها مايصف قلب ذلك المعنى ولم يخرج عن حده الاصابة فيه كقول علي بن الجهم ،

قالوا حبست فقلت ليس بضائري
حبس واي مهند لايغمد
او مارأيت الليث يألف غيله
كبرا واويآش السباع تردد

فلما نصب للناس وعرى قال مستعملا التشبيه نفسه مشبها حالة السيف ولكنه عكس الصورة بأن جعله مسلولا وذلك اكثر هيبة ورهبة بالليث ولكن مفارق لغيله بينما كان تشبيهه في البيتين السابقين الفا لغيله ،

نصبوا بحمد الله ملء عيونهم
حسنا وملء صدورهم تبجيلا
ماعابه ان بز عنه ثيابه
فالسيف اهون مايرى مسلولا(٧٩)

وبهذه المعالجات يكون ابن طباطبا قد خطا خطوة تطبيقية نحو معالجة ازمة الشاعر المحدث وقدم حلولا وشواهد لمعالجة السبب الاول لهذه الازمة والمتمثل بشعور الشاعر ان القدماء لم يتركوا له مجالا للقول حين ظن انهم استوفوا المعاني الجميلة واتوا بالجيد الذي لايطال .

اما معالجة السبب الثاني من اسباب المحنة وهو مايتعلق بدوافع القول التي خيل اليه ان المحدثين يفتقدون فيها الصدق بخلاف الشعراء القدماء فقد شغلت بال ابن طباطبا ايضا وكررها في اكثر من موطن من كتابه محاولا دفع الشاعر المحدث الى الصدق في التعبير . فمفهوم الصدق عنده ليس الصدق الاخلاقي بمعناه المخالف للكذب وانما هو صدق الواقع المراد تصويره لان النفس تألف المألوف الممكن الوقوع وتنفر من الغريب المستغلق او المحال المجهول (والفهم يأنس من الكلام بالعدل والصواب الحق والجائز المعروف المألوف ويتشوق اليه ويتجلى له . ويستوحش من الكلام الجائز والخطأ الباطل والمحال المجهول المنكر وينفر منه ويصدأ له(٨٠) .

فصدق الشاعر هنا قرب مايصوره من النفس الانسانية وما الفته من مشاهد ومشاعر فيكون ماينقله الشاعر تعبيرا لما يحسه القارىء او السامع وبذا يتسع مفهوم الصدق لدى ابن طباطبا ولايجعله خلاف الكذب الاخلاقي فحسب وانما هو ماوافق الطبيعة الانسانية واجاد في التعبير عنها وتصويرها وتمثل بقول الرسول (ص) ماخرج من القلب وقع القلب وما خرج من اللسان لم يتعد الاذن . فاذا صدق وورد القول نثرا ونظما اثلج صدره وقال بعض القلاسفة ، ان للنفس كلمات روحانية من جنس ذاتها وجعل ذلك برهانا على نفع الرقي ونجعلها فيما تستعمل له(٨١) .

---

(٧٩) عيار الشعر ٨٤
(٨٠) نفسه ٢٠
(٨١) عيار الشعر ٢٢ ـ ٢٣

ويكون صدق الشاعر بتصويره مألفته النفس الانسانية في الموقف الذي يحسن فيه المعنى الذي اراده الشاعر وهو ماسماه بموافقته للحال التي يعد معناه لها كالمدح في حال المفاخرة وحضور من يكبت بانشاده من الاعداء ومن يسُربه من الاولياء وكالهجاء في حال مباراة المهاجي والمراثي في حال جزع المصاب وتذكر مناقب المفقود عند تأبينه وكالغزل والتشبيب عند شكوى العاشق واهتياج شوقه وحنينه الى من يهواه(٨٢).

ففي هذا الحال يلقي مايقوله الشاعر صدى وهوى في نفس السامع لان المعاني تكون موافقة للحال التي يكون عليها. والمشاعر التي تمتلكه وما اهتزاز الناس بالاشعار الجيدة الا لشعورهم انها تصور معاناتهم هم وتكشف عما يختلج في نفوسهم من مشاعر وانفعالات. يقول ابن طباطبا:

(فاذا وافقت هذه الحالات تضاعف حسن موقعها عند مستمعها لاسيما اذا ايدت بما يجذب القلوب من الصدق عن ذات النفس يكشف المعاني المختلجة فيه والتصريح بما كان يكتم منها. والاعتراف بالحق في جميعها)(٨٣).

وقد فصل ابن طباطبا الحديث عن التشبيه لكثرة وروده عندالشعراء الاقدمين ولاحساس الشعراء المحدثين ان جودة تشبيهات القدماء قد تكون حائلا بينهم وبين مايريدونه من الاجادة والجديد من المعاني وهنا يأتي اقتراح ابن طباطبا المتمم لحل مشكلة الشعر المحدث بأن يمعن الشاعر النظر في تشبيهات الاقدمين ويعرف سر جمالها واوجه الشبه في صوزها لان العرب اودعت اشعارها من الاوصاف والتشبيهات والحكم ما احاطت به معرفتها وادركه عيانها ومرت به تجاربها. فتضمنت اشعارها من التشبيهات ما ادركه من ذلك عيانها وحسها.

ويقترح ابن طباطبا مقياسا يعرف به صدق التشبيه او مقاربته للصدق الذي يعني به تصوير الواقع او ما يماثله ويمكن حدوثه بأن يقول الشاعر او القارىء في الوصف الذي يرد فيه التشبيه الصادق كأن ماقارب الصدق يقول فيه تراه او تخاله او يكاد ... ثم يقدم شواهد شعرية تؤكد قوله وتوضحه وبذا تحل ازمة التشبيهات ـ ان وجدت حقا ـ من خلال تمعن النظر في التشبيهات الجيدة ومحاولة الاستفادة منها والاحتذاء حذوها في صدق التصوير وجمال التعبير لا التقليد والتكرار الممل.

---

(٨٢) عيار الشعر ٢٢ ـ ٢٣

(٨٣) عيار الشعر ٢٢ ـ ٢٣

. اما حكاية الشاعر لحدث او واقعة معينة فهي بحاجة ايضا الى جمال تعبير يلازم صدق الشاعر في تصوير هذا الحدث بحيث يبني شعره على وزن يحتمل زيادة او نقصانا بما يقتضيه التعبير الفني في الشعر فتكون الالفاظ المزيدة في الخير المحكي وسيلة لاضفاء الجمال الفني عليه ويورد قصيدة للسموأل يحكي فيها المشهورة في محافظته على الامانة التي اؤتمن عليها معلقا على القصيدة بقوله الذي يمكن ان نفهم منه شروط لحكاية الحدث الواقعي بقوله :(فانظر الى استواء الكلام وسهولة مخرجه وتمام معانيه وصدق الحكاية فيه ووقوع كل كلمة موقعها الذي اريدت من غير حشد مجتلب ولاخلل شائن) . لان الشاعر هنا عمد الى اختصار القصة وايجاز الكلام ليوفي ابياته الشعرية حقها من جمال التعبير وحسن التأليف

اما السبب الثالث من اسباب المحنة وهو ماظنه ابن طباطبا من كون المحدثين صادرين في اشعارهم عن تكلف بخلاف الشعراء القدماء الذين يصدرون اشعارهم عن طبع وسليقة شعرية اصيلة فأن ابن طباطبا اقام معظم فصول الكتاب لمعالجة هذا الاشكال والآخذ بالشاعر المحدث نحو الطبع الجيد وصقل الموهبة واعانتها بالمران والثقافة الموسعة لتقارب اشعاره من اشعار القدماء في سلامة اللغة وحسن التعبير وصدق المشاعر .

فاذا كان الاطلاع على الشعر الجيد معينا للشاعر على صقل موهبته وتهذيبها فأن معرفة العيوب التي عيبت على الشعراء مفيدة ايضا على تجنب الردىء من الاشعار (فينبغي للشاعر في عصرنا ان لايظهر شعره الا بعد ثقته بجودته وحسنه وسلامته من العيوب التي نبه عليها وامر بالتحرز منها ونهى عن استعمال نظائرها)(٨٨) .

فما العيوب التي يجب ان يحترز منها الشاعر . لقد عقد ابن طباطبا فصولا لذكر معايب الشعر ويقابلها باضدادها من الاشعار الجيدة ليتجنب نماذج الاولى ويحتذي حذو الثانية . مما يحترز منه مثلا ماسماه بـ (الابيات المتفاوتة النسج) وقد ذكر لها نماذج في فصل خصه لها ذكر فيه ابياتا مستكرهة الالفاظ . متفاوتة النسج قبيحة العبارة كأن تكون الفاظ البيت رديئة الوقع متكلفة غير مؤيدة الا بافتعال متصنع وان يقدم الشاعر لفظا او يؤخره محملا المعنى غموضا والاسلوب ثقلا وتصنعا كالذي عيب عليه .

---

(٨٨) عيار الشعر ١٥

وما مثله في الناس الا مملكا
ابو امه حي ابوه يقاربه

وكقول ابي حية النميري :

كما خط الكتاب بكف يوما
يهودي يقارب او يزيل

يريد كما خط الكتاب يوماً بكف يهودي يقارب او يزيل .

اما اذا تصور الشاعر بأنه ليس بحاجة الى فن في اختيار الالفاظ المعبرة عن المعنى لانه في موقع الحكاية لخبر ما او حادث مايقتضي منه النقل الحرفي فأن ابن طباطبا يستثنيه عن هذا الاحتراز الموجب تجنب التعقيد او الاسلوب الثقيل لانه يستطيع ـ اذا كان بارعاً ـ ان يتفنن في اسلوبه الشعري فيلجأ الى الزيادة او النقصان او الحاف مما يزيد الخبر رونقاً وحسناً ويخرجه من اطار الحكاية التقريرية الى التصوير الفني الجميل ويضرب بهذا مثلاً قصيدة الاعشى فيما اقتص من خبر السموأل المشهور متمثلاً بسبعة عشر بيتاً منها : ـ

كن كالسموأل اذ طاف الهمام له
في جحفل كرهاء الليل جرار

معلقاً عليه بقوله (فانظر الى استواء هذا الكلام وسهولة مخرجة وتمام معانيه وصدق الحكاية فيه ووقوع كل كلمة موقعها الذي اريدت له من غير حشد مجتلب ولا خلل شائن . وتأمل لطف الاعشى فيما حكاه واختصره في قوله :

أأقتل ابنك صبرا او تجيء بها
طوعا فانكر هذا اي انكار

فاضمر ضمير الهاء في قوله (واختار ادارته أن لا يسب بها) فتلافى ذلك الخلل بهذا الشرح فاستغنى سامع هذه الابيات عن استماع القصة فيها لاشتمالها على الخبر كله بأوجز كلام وابلغ حكاية واحسن تأليف والطف ايماءة(٨٥) .

---

(٨٥) عيار الشعر ـ ٤٩ . وبذا نستطيع ان نفهم مراد ابن طباطبا من توجيه الشاعر في حكاية الخبر او الحدث المعين فهو لم يضربه في سياق الصدق وانواعه كما ذهب بعض الباحثين وانما تمثل به في باب الاحتراز من الابيات المتفاوتة النسج ليقول ان لاحجة للشاعر في اللجوء الى الاسلوب التقريري في الحدث والحكاية عن خبر ما وانما يجب ان يلتزم الاخطاء الفنية المتعلقة بسوء اختيار الالفاظ او ثقل الاسلوب بسبب اللجوء الى السرد التقريري او بحجة الحفاظ على صحة الخبر وصدقه فهاتان مسألتان لاتعيقان الشاعر عن الابداع الفني اذا كان متمكنا من ادواته الشعرية .

وقد خالف العسكري ـ فيما بعد دعوة ابن طباطبا هذه حين اشترط ان الشاعر الى الخبر والحكاية التي يحكيها لا ان يطوعهما لاداته الشعرية ولو حدث هذا كما اقترح العسكري اخرجت مثل هذه الحكايات للاحداث عن الاشعار الى الخبر السردي والحكاية المروية لانه يقول : (واذا دعت الضرورة الى سوق خبر واقتصاص كلام فتحتاج الى ان تتوخى فيه الصدق وتتحرى الحق . فأن الكلام حينئذ يملك ويحوجك الى اتباعه والانقياد له)(٨٦) .

٢ . الاحتراز من الاغراق في المعاني

ويذكر نماذج للاغراق في المعاني ولكنه يقف منها موقفا متباينا فبعض الشواهد يكتفي بذكرها وكأنه يؤكد اغراق اصحابها في معانيها ومبالغتهم المفرطة فيها والبعض الاخر من الشواهد يعلق عليه تعليقا يدل على اعجابه بمبالغة الشاعر كقول النابغة ،

وانك كالليل الذي هو مدركي
وان خلت ان المنتأى عنك واسع
خطاطيف حجن في حبال متينة
تمد بها ايد اليك نوازع

وحلل ابن طباطبا تركيب البيت الاول وصورته الوصفية بقوله ، (وانما قال كالليل الذي هو مدركي ولم يقل كالصبح لانه وصفه في حال سخطه فشبهه بالليل وهو له فهي كلمة جامعة لمعان كثيرة) .
وكقول الفرزدق ،

لقد خفت حتى لو رأى الموت مقبلا
ليأخذني والموت يكره زائره
لكان من الحجاج اهون روعة
اذا هو اغفى وهو سام نواظره

(فأنظر الى لطفه في قوله اذا هو اغفى ليكون اشد مبالغة في الوصف اذا وصفه عند اغفاله بالموت فما ظنك به ناظرا متأملا يقظا ثم نزهه عن الاغفاء فقال وهو سام نواظره .

---

(٨٦) الصناعتين ١٤٧

فاذا عدنا الى الشواهد الشعرية التي بها هذا الفصل (الاغراق في المعاني) وجدنا الشعراء قد بالغوا فيها وافرطوا افراطاً خرج بالمعاني الى حد المستحيل او ما سماه قدامة بن جعفر الممتنع الوقوع كقول النابغة الجعدي :

بلغنا السماء نجدة وتكرما
وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا(٨٧)

وكقول الطرماح :

لو كان يخفى على الرحمن خافية
من خلقه خفيت عنه بنو اسد(٨٨)

ويكثر من الشواهد الشعرية القديمة والمحدثة ليضع امام القارىء شواهد للاشعار المحكمة المستوفاة للمعاني الحسنة الوصف ، السلسة الالفاظ التي قد تخرج خروج النثر سهولة وانتظاما فلا استكراه في قوافيها ولا تكلف في معانيها .

٣ . الاحتراز من الابيات المتكلفة النسج

ويذكر ابن طباطبا فيها شواهد للاشعار الفثة الالفاظ الباردة المعاني المتكلفة النسج القلقة القوافي والغريب في هذا الفصل ان ابن طباطبا يتمثل بقصيدة للاعشى تقع في ٧٦ بيتا ، وبعدها نموذجا للاشعار الفثة الالفاظ المتكلفة النسج وانه لا يسلم منها الا خمسة ابيات ذكرها ليقف القارىء على التكلف الظاهر فيها ويتبعها بذكر قصيدة اخرى للاعشى ايضا وبعدها نموذجا للتكلف وبشاعة القول . ويرى ان مثل هذه الاشعار مما يصدىء الفهم ويورث الغم ويقارنها بابيات لشاعر محدث هو احمد بن ابي ظاهر(٨٩) فيعدها مما يجلو الهم ويشحذ الفهم وانها من الصفو الذي لا كدر فيه .. وكأن ابن طباطبا اراد في هذا الفصل ان ينصف الشعر المحدث حين يبين مااخذ على قصيدتين طويلتين لشاعر جاهلي بينما قابلها باشعار جيدة لمحدثين ليقول ان اكثر من يستحسن الشعر تقليدا على حسب شهرة الشاعر وتقدم زمانه والا فالشعر الذي تمثل به (وهو لمحدث) اولى بالاستحسان والاستجادة من كل شعر تقدمه) . ونجد الموقف نفسه في الفصل الذي عقده (للتخلص) ويقصد به الابيات

---

(٨٧) وقد مر بنا كيف وجه الشاعر معنى هذا البيت امام الرسول (ص) فحول فخره الى شعر اسلامي مقبول (انظر الفصل الثاني) .

(٨٨) راجع عيار الشعر ٥١

(٨٩) عيار الشعر ٧٦ ـ ٧٧

التي تخلص بها قائلوها الى المعاني التي ارادوها من مديح او هجاء او افتخار او غير ذلك ولطفوا في صلة مابعدها بها فصارت غير منقطة عنها فيرى ان المحدثين ايضا قد ابدعوا فيه وفاقوا من تقدمهم وهو ان ذكر شواهد الجاهليين في هذا الفصل الا انه اتبعها بشواهد كثيرة للشعراء العباسيين ليؤيد ماذهب اليه اول الفصل .

٤ . وينبغي للشاعر ان يتجنب الاشارات البعيدة والحكايات المغلقة والايماء المشكل ويستعمل من المجاز مايقارب الحقيقة ولا يبعد عنها .

٥ . ومما يجب الاحتراز منه وجوب احتراز الشاعر في مفتتح اقواله مما يتطير منه او يستجفى من الكلام والمخاطبات كذكر البكاء ووصف اقفار الديار وتشتت الالاف ونعي الشباب وذم الزمان لاسيما في القصائد التي تضمن المدائح او التهاني وتستعمل هذه المعاني في المراثي ووصف الخطوب الحادثة(٩٠) .

٦ . وجوب الاحتراز من ذكر الاسماء التي توافق اسماء بعض نساء الممدوح من امة او قرابة او غيرها وكذلك مايتصل به سببه من ذلك ان ارطأة ابن سهية الشاعر دخل على عبد الملك بن مروان فقال له ، مابقي من شعرك ؟ فقال له ، مابقي من شعرك ؟ فقال ، ماطرب ولاحزن ياامير المؤمنين ، وانما يقال الشعر لاحدهما ولكني قد قلت ،

رأيت الدهر يأكل كل حي
كأكل الارض ساقطة الحديد

وما تبغي المنية حين تغدو
سوى نفس ابن آدم من مزيد

واحسب انها ستكر يوما
توفي نذرها بأبي الوليد

قال له عبد الملك ، ماتقول ثكلتك امك ؟ فقال انا ابو الوليد ياامير المؤمنين . وكان عبد الملك يكنى ابا الوليد ايضا .

---

(٩٠) صلر الشعر ١٣٦ . وانظر في هذا ماكتبه العسكري في الصناعتين ٤٣٢ والفصل الذي كتبه ابن رشيق عن افتتاح القصائد وعن الشعراء الذين لم يجيدوا الابتداء . العمدة ١ / ٢٣٣

٧. ان يحترز الشاعر من مخاطبة من يوجه اليه شعره في المعاني التي يستبشع ذكرها او يتطير منها ويعدل عن المخاطبة بالكاف الى يأء بالإضافة فيحترز مما قد يوقع نفسه فيه من تحرج المخاطب او تذمه للمعنى او تطيره .

كقول الشاعر ،

ولا تحسبن الحزن يبقى فأنه
شهاب حريق واقد ثم يخمد
سألف فقدان الذي قد فقدته
كألفك وجدان الذي انت واجد

وانما اراد الشاعر ستألف فقدان الذي قد فقدته كالفك وجد ان الذي قد وجدته أن تتعزى عن مصيبتك بالسلو . فلطف الشاعر في اضافة ذكر المفقود الذي يتطير منه الى نفسه(٩١)

٨. وينبغي للشاعر ان يتآمل تأليف شعره وتنسيق ابياته ويقف على حسن تجاورها او قبحه فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ويتصل فيها كلامه ولا يجهل بين ماقد ابتدأ وصفه وبين تمامه فضلاً من حشو ليس من جنس ماهو فيه فينسى السامع المعنى الذي يسوق القول اليه. كما انه يحترز من ذلك في كل بيت فلا يباعد كلمة عن اختها ولا يحجز بينها وبين تمامها بحشو يشينها(٩٢) .

فاذا اضفنا الى هذه الفصول التي نبه ابن طباطبا فيها الى امور يجب الاحتراز منها ليخلص شعره من المعايب واذا اضفنا اليها فصوله التي فصل فيها القول عن العملية الشعرية وابداع القصيدة وجدنا ان كتاب عيار الشعر قد نجح فيه مؤلفه في اقامة فصوله وابوابه حول قضية واحدة شغلت فكره وعانى منها نفسه الا وهي قضية الابداع الشعري والوصول بالقصيدة الشعرية عند الشاعر المحدث الى المستوى الجيد الذي يخرجها من الازمة التي عانى منها ابن طباطبا بسبب اعجابه بالشعر العربي القديم وخوفه من مقارنة الشعر المحدث به فاقام كتابه حول هذه المسألة متتبعاً الاسلوب التطبيقي في اختيار الشواهد ونقدها وبيان عيوبها او مساوئها .

---

(٩١) عيار الشعر ١٣٧
(٩٢) عيار الشعر ١٣٩